الإيزوتيريك والعقيدة المسيحيّة
من خلال رواية "رحلة في خفايا الذّات الانسانيّة[1]"

نجوى حسيكي*

أ- تمهيد:

إنّه تيّارٌ فكريّ ينتشر في أوساطنا، يطلق على نفسه اسم "الإيزوتيريك"، لديه العديد من النشاطات، فضلًا عن عدد كبير من الإصدارات تجاوزت الخمسين كتابًا، وقبل البحث فيه وعنه لا بدّ من تقديمٍ موجز له، كما يعرّفه أصحابه:

الإيزوتيريك (The Esoteric) أو العلوم الباطنيّة، كلمة يونانيّة الأصل والمنشأ، تعني الخفيّ والخاص من التعاليم التي يصعب إدراكها على غير مستنيري العقول. أمّا هدفها فإيصال كلّ إنسان إلى وعي ذاته، ومعرفة حقيقتها، بما في ذلك من تفتيح المقدرات العقلية، والقوى الخفيّة الهاجعة في أعماق كلّ إنسان، وذلك بهدف تطوير الوعي على كل صعيد، والتوصّل إلى الذّكاء السّامي، والسير بالإنسان نحو الأفضل والأكمل والأشمل... انطلاقًا من أنّ الإنسان هو سيد نفسه ومصيره.

لسنا بصدد التوسّع أكثر، إذ الهدف من هذا المقال مقارنة أبرز أسس العقيدة المسيحيّة بطروحات الإيزوتيريك. لذلك انتقينا عبارات تسمح بطرح بضعة تساؤلات، وهي: "إنّ الأديان قد تحوّلت الى قيد من الممارسات والطقوس، وقد أخفقت، لأنّها أخطأت الوسيلة فضلّت الغاية"[2]. وجاء أيضًا: "الانسان هو الصليب، والروح هي الصّالبة[3]، وقَدَرُ كلّ بشريّ أن يصير مسيح نفسه – مخلّصها – عندما يسيطر على ذاته، ويصلب على الصليب نفسه. إنّه سائرٌ حتمًا في درب المسيح نحو الاتّحاد والكمال. وفي المرحلة الأخيرة، في اليوم الثالث يقوم من بين الجاهلين، ويرتفع من بين أنقاض الكافرين... يرتفع الى ملاقاة الحقيقة العارية. تلك الحقيقة التي تاق إليها، والتي تحمّل ازدراء الناس في سبيلها، والتي ذاق كأس العلقم من أجلها. إنّها الحقيقة الوحيدة التي تُبلغ الى الهدف، حقيقة صيرورة الإنسان إلهًا"[4].

نتساءل بداية: إذا كان الإيزوتيريك علمًا حديثًا، يطرح نفسه على السّاحة الثّقافية بكثير من الثّقة، ويدّعي أنّه لا يتدخل في الأديان، فلماذا اعتمد مصطلحات أو مناسبات دينيّة – مسيحيّة[5]؟ لماذا جعلت رواية "رحلة في خفايا الذات الانسانيّة" الطالب يرقى فيصبح "مسيحًا" وليس "بوذا" أو "موسى"، على سبيل المثال لا الحصر؟ هل الهدف هو طرح تفسيرٍ جديدٍ، في مقام العقيدة المسيحية، وسبيل الخلاص؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا العقيدة المسيحيّة تحديدًا؟ هل لأنّ للسيد المسيح مكانته العظيمة أم لأنّ ثقافة الكاتب الباطنيّة

انعكست في خلفيّته الدينيّة، فقرأ الكتاب المقدس على طريقته؟ أم أنّ هناك ما هو أبعد من ذلك؟ ومن ثمّ ما المنهل الفكري لهذا التنظيم؟ انطلاقًا من هذه الأسئلة، نعتمد في مقاربة الرواية على منهج مركّبٍ من السّرديّة التحليليّة، والسّيميائيّة التّأويليّة، والموضوعاتيّة المقارنة، إنطلاقًا من المربّع السيميائيّ الخاص بالإيزوتيريك والفكر المسيحيّ من خلال الرواية المذكورة لتوضيح حدود الإشكاليّة:

الإيزوتيك (العلم) — الكنيسة (الدين)

الصراع

قدرة — المعرفة اللاّجهل — الجهل اللاّمعرفة — عجز

الفوضى

خلاص — موت

يوضح هذا المربّع أنّ التضادّ القائم بين المعرفة والجهل من ناحية، ومتضمنيهما[6] اللّامعرفة واللّاجهل من ناحية ثانية، يعيّن ذلك التناقض الخاص بين الخلاص والموت من ناحية، والصراع والفوضى من ناحية ثانية، ففي حين يبرز الجهل ومتضمّنه اللّامعرفة "عجز" الفكر الدينيّ المسيحيّ عن إيصال الإنسان إلى خلاصه، حيث عليه دخول دوّامة من الحيوات (سلسلة ولادات) تعيّن المعرفة ومتضمّنها اللّاجهل قدرة العلم الإيزوتيركيّ على إيصال الإنسان، إلى خلاصه وانتصاره على تحكّم الموت به.

لهذه المعرفة، الّتي تحدّث عنها الفكر المسيحيّ أسسٌ عقائديّةٌ، تناولتها الطروحات الإيزوتيركيّة، لتؤوّلها بقراءةٍ جديدةٍ، لا خلاص من دون اعتناقها، كما تثبت. وننتقي منها أبرز العناوين التي لها علاقة بما ذكر في الرواية وهي ملحمة الخلق ومفهوم الثالوث.

ب- ملحمة الخلق:

تتحدث الرواية – تحت عنوان "ملحمة الخلق"[7] – عن مخطّطٍ إلهيّ يجعل التجربة الانسانيّة مقسّمة إلى سبعة أطوارٍ، ويعيد قصة آدم وحواء إلى الطور الرّابع– فهي لم تحدث في بدء التكوين– ويحدّد أنّ البشريّة اليوم، في طورها الخامس. أمّا طرحه الخاصّ لهذه القصة فهو على الشّكل الآتي:

يصف الإيزوتيريك آدم الأول– الإنسان الأوّل الكامل– قبل أن ينشطر إلى رجل وامرأة، استمر على مدى الأطوار الثلاثة الأول[8] "... كرويًا، ليّنًا، بدأ مع الزمن يجفّ ويقسو ويتشكّل، حتى انتهى إلى ما هو عليه الآن[9]، كان هذا الإنسان مجسّدًا الكمال، والجمال الألوهيّ[10]، وكان "الإله – الطفل" وحدة، رجلًا وامرأة في كلّ واحد موحّد مكتمل[11]، ذا قدرات خارقة، لكنّ النّاموس الإلهي يقضي بقانون الثنائيّة، لأنّ "الكمال لا يعي نفسه إلاّ بالنقصان، والثنائية هي العنصر الفعّال الذي سيدفع الإنسان ليسعى..."[12].

وهكذا انشطر الإنسان الأول، الإله– الطفل، فكان رجل وكانت امرأة، لكن ماذا يقول الإيزوتيريك في الخطيئة؟

قبل الدخول في ما يقوله الإيزوتيريك في مفهوم الخطيئة، أشير إلى أنّي لم أجد في

بحثي بين المؤلفات المسيحيّة حديثًا عن أطوار، فما قاله العهد القديم، هو أنّ الله خلق الإنسان على صورته، كمثاله[13] "ذكرًا وأنثى خلقهما"[14]، خلق آدم بداية ثمّ شاء أن يكون له معين، فخلق حوّاء من إحدى أضلاعه بعد أن أدخله في سبات عميق[15].

إنّ قصّة الخلق تفرض البحث عن مفهوم الخطيئة.

لا خطيئة أصلية، ولا سقوط من الجنة للإنسان الأول آدم، في رأي الإيزوتيريك، بل اختيار مصيب للاكتشاف والمعرفة، فآدم اختار أن يأكل من شجرة معرفة الخير والشر، ليختبر ويتعلّم، فالمعرفة ستكون طريق العودة الواعية إلى الوحدة، إلى النور، إلى الوعي الكامل، وذلك لا يتمّ من دون عبور الثنائيّة، ومن ثم تخطّيها[16]، وعليه فحواء الّتي أغوته، ليأكل من ثمار الشجرة، "كانت أكثر دراية من الرجل، لا بل كانت دليله إلى الحكمة!"[17]. أما الحيّة فقد رمزت إلى الحكمة الإلهية، يوثّقون حكمهم هذا بالاستشهاد بقول السيد المسيح الذي رمز إلى نفسه بالحيّة في قوله: "وكما رفع موسى الحيّة في البريّة، هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان"[18]، وفي قوله أيضًا: "جعل الغالب يأكل من شجرة الحياة في فردوس الله"[19]، كذلك "هنيئًا لمن يغسلون حللهم ليكون لهم سلطان على شجرة الحياة، وليدخلوا المدينة من أبوابها"[20].

أما دينيًّا، فقد حرّم الله على آدم وحواء أن يقربا من الشجرة، وأتت الحيّة مؤدّية دور الشيطان، فوسوست لحوّاء التي أغوت آدم، فأكل من الشجرة، وكانت الخطيئة. وبالعودة إلى إحدى القراءات، ورد ما معناه أنّ الخطيئة الأولى، كانت اعتداءً على سيادة الله بارتكاب خطيئة الكبرياء. وهذا التمرّد قام على مخالفة وصيّة أمر الله بها، واتخذت صورة الثّمر المحرّم[21]. وبعد فماذا عن الثالوث؟

ج- مفهوم الثالوث في الإيزوتيريك:

إنّ الثّالوث في مفهوم الإيزوتيريك يأتي ضمن معادلة رياضيّة تختصر الوجود، خلقًا ومسارًا ومآلًا. تبدأ المعادلة: "في الأزل لم يكن للأرقام وجود... فقد.. وكانت... وظهر الثالوث الأول، ثالوث الحق: واحد، ثم صفر، ثم واحد... ومن ثالوث الحق انطلقت كل ثواليث الوجود..."[22]. أما الواحد قبل الصفر، فيمثّل الخالق، والواحد بعد الصفر يمثل الإنسان، أما الصفر فيمثل فضاء الوجود، أي الرحم الكونيّة التي تمت فيها عمليّة الخلق[23]. وعليه فالإنسان هو الإله- الطفل، الّذي سيعود إلى خالقه، لكنّ عودته ليست جمودًا - نهاية، بل مسيرة جديدة أرقى وأسمى. لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو: أين "المسيح- الابن" في ثالوث الإيزوتيريك؟

إن الثالوث القدوس في الإيمان المسيحيّ هو: إله واحد في ثلاثة أقانيم متساوية في الجوهر- التعدد في الوحدة، الوحدة في التعدد- أقنوم الآب، وأقنوم الابن، وأقنوم الرّوح القدس.

إن الآب- الله- خالق كل شيء، ما يرى، وما لا يُرى، ليس حالًا في مخلوقاته، له طبيعة إلهية غير مخلوقة، ثالوث قدوس، منزّه وسام، يدخل في علاقة شخصيّة، لا ذوبان فيها بالإنسان المخلوق على صورته ومثاله، الذي خلقه بمحبّة، ويحترم حريته[24].

أما الروح القدس فهو أحد أقانيم الثالوث القدوس- واهب النعم، المعزّي، روح الحق. ويسوع المسيح هو أقنوم الابن في الثالوث القدوس، مساوٍ للآب في الجوهر، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، إنسان كامل وإله كامل، الله الدّيان ومخلّص العالم[25].

الثالوث القدوس في المفهوم الإيزوتيريكي عرّفناه في العنوان السابق، أما الله فلا تعريف مباشرًا عنه، لكن يشار إليه بتعابير مثل: روح كليّة فاضت في الإنسان، ذاكرة كونيّة، الملك، العقل الكلي، وهو قد ازدوج في المادة وتثلّث في الإنسان، فالإنسان شعاع منه[26]، الروح القدس هو المحبة، نفس الله، أرقى مراتب الذات[27].

لكن لا وجود للسيد المسيح في ثالوث الإيزوتيريك. ودور الابن لا يختصر فيه، بل في الإنسان، لأنّ السيد المسيح هو بشر، وصل إلى كماله بجهده الخاص، بعد حيوات عديدة، تخلّص عبر آلامه من بشريّته، ثم من انسانيّته، فتألّه- وهو أحد معلمي الإيزوتيريك[28].

إذا ما أردنا البحث عن مصدر الفكر الذي غذّى هذه الطروحات، يظهر لنا كتاب "أني بيزنت" (annie besant) "المسيحيّة الباطنيّة" (Esoteric Christianity) الذي يجعل الناس تتساوى بيسّوع، ويتساوى بها بفعل الروح الإلهيّة السّاكنة فيهم[29]، والذي يفصل ما بين المسيح - المتألّه ويسّوع - الإنسان[30]. هكذا ينقض الإيزوتيريك ثالوث الكنيسة، ليبني مكانه ثالوثه الخاص. لكن ماذا عن طريق الخلاص ومآله؟

د- السبيل نحو الخلاص والألوهة:

على ضوء الأسئلة نفسها التي انطلقنا منها لدراسة المربّع السيميائيّ الخاصّ بالمستوى التأويليّ، نحاول دراسة المخطط العواملّيّ، الخاص بهذا المستوى:

*مبادىء الإيزوتيريك وقيمه	←	طريق الخلاص	←	الناس عامةً والمسيحيون بخاصّةٍ
*الميل الفطريّ للبحث في الروحانيّات.		↑		الإيمان الديني.
*إفتقاد الانتماء والتّعطّش إلى المعرفة.	←		→	الثقافة الروحانيّة المعتمدة
*الهروب من الماديّات والمجتمع الاستهلاكي.		الشاب نموذجًا		حسن الولاء والعيش في توازنٍ نفسيّ[31].

تحتل مبادىء الإيزوتيريك وقيمه محور الإرسال، وهي موجّهة إلى الإنسان المسيحيّ بشكلٍ خاص، وإلى كلّ إنسانٍ بشكلٍ عام، أمّا العامل الذّات، فهو الشاب الذي سلك طريق الخلاص الذي رسمه له معلّمه - وهو النّموذج الذي يريد الإيزوتيريك الاحتذاء به. أمّا العوامل المساعدة فهي: الميل الفطريّ عند الإنسان للبحث في الروحانيّات، افتقاد الانتماء، والتعطّش الى المعرفة، الهروب من الماديّات والمجتمع الاستهلاكيّ. في المقابل، فإنّ العوامل المعاكسة هي نقيض هذه العوامل المذكورة، وهي الإيمان الديني، الثقافة الروحانيّة المعمّقة والمتنوّعة، حسن الولاء والعيش في توازنٍ نفسّيّ. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه العوامل هي نسبيّة أي أنّها تعود إلى الإمكانيّات الثقافيّة والإيمانيّة الخاصّة بكل إنسان. فإذا كانت الأديان -

برأي الإيزوتيريك– قد تحوّلت إلى قيد من الممارسات والطقوس، وقد أخفقت، لأنّها أخطأت الوسيلة فضلّت الغاية[32]، فإن الطريق الذي يرسمه هو الوسيلة الصحيحة! فهل تفسيره وتصحيحه قد يلقى تجاوبًا من قبل الكنيسة التي تقبل – بشروط –[33]، بتفسير يهدف إلى خلق صلاتٍ بين نصوص الكتاب والقارىء؟ أم إنّه يُفسّر ليخلق قراءة جديدة للفكر المسيحي؟

1. مفهوم الخلاص بين الجهد الشخصي والعطاء المجّاني[34]:

جدّ الطالب، وثابر، في سعي حثيث منذ بداية الرواية التي تناولت حياته في سياقٍ كرونولوجي، قسّمناه إلى مراحل ثلاث: كانت المرحلة الأولى صراعًا مع الإزدواجيّة حيث واجه سلبيّاته بمحبّته[35]، وذكّره المعلم بضرورة تفعيل الإيمان والثّقة بقدراته[36]، ولولا ذلك لما وصل الى اليقين.

وبعد ولوجه المرحلة الثّانية تمكّن بجهده الخاص، من تفسير المعادلات الفكريّة الإلهيّة وتحليلها، أو الأسرار الوجوديّة الخفيّة. كإدراكه مغزى عبارة: "الإنسان عالم صغير – كبير... يطوي الكون في ذاته... وفي كليهما يستوي عرش الخالق!" أو فهمه لغز المسألة الآتية: في الأزل، لم يكن للأرقام وجود. لكن الواحد أوجد الصفر لتبدأ رحلة الأعداد... وظهر الثالوث الأوّل، ثالوث الحق: واحد ثمّ صفر ثمّ واحد... والكل سيعود... لتكتمل مسيرة أعداد أخرى في أنظمة أسمى[37].

وبفضل تنقيته تربة نفسه تمكّن من تغيير مجرى حياته، فترقّى الى مرتبة رئيس قسم الاعتمادات، وأعاد زوجته الّتي هجرها[38]. فكلّ مجريات الحياة إذًا، خاضعة لقانون السّبب والنّتيجة، الفعل ورد الفعل، والإنسان هو محور نفسه، فليس للقدر أو لأي سلطة عُليا تأثيرٌ في مجريات الحياة، بل إنّ المجريات كلّها مرتبطة بفعل الإنسان الذي عليه، هو، أن يعقد النيّة، ويسير على الدّرب المرسومة نحو الرّب، فوفق هذا المنطلق تخرّج الشاب بجهده الخاص، وأكّد ذلك قول المعلّم: "اليوم أنهيت مسؤوليتك تجاه توعية ذاتك، وتفتّحها على حقيقتك، وستغادر المعبد الأصفر نهائيًا"[39]. وهو المعبد الأخير الذي أتمّ به هرمه الأصغر – أي الهرم الإنسانيّ – وابتدأ مسيرة جديدة في الهرم الأكبر– الإلهيّ– أي أنه خاض قيامته الكبرى، بفضل جهوده التي بذلها، وأنهى حياته الأرضيّة.

إنّ الذهنيّة الدّينيّة تؤمن بما يسمّى "الفقر الروحي"، فهم ليسوا مخلّصين بفضل أعمال برٍّ عملوها، أو مجاهدات قدّموها، بل برحمة الله، "بغسل الميلاد الثاني، والتجديد من الرّوح القدس، الذي أفاضه علينا وافرًا بيسّوع المسيح مخلّصنا"[40]. أمّا الجّهد المطلوب، فهو الاقتداء بالسّيد المسيح الذي يفترض إخلاء الذات، توبةً وصلاةً، تجردًا وخضوعًا لله الأب، اضطهادًا وألمًا، عطاءً غير مشروط، بذل الذات بشكل لا متناهٍ، القيادة الخادمة، والطفولة الروحيّة[41].

ليس الخلاص – في مفهوم الكنيسة – إذًا هو بذل جهد وتلقّي نتيجة أتعاب، بل إنّه عطيّة مجّانية لكلّ إنسان مؤمن يقتدي بسيرة السيّد المسيح، بشريعة المحبّة وفقًا

للقول: "اقتدوا إذًا بالله شأن أبناءٍ أحبّاء، وسيروا في المحبة سيرة المسيح الذي أحبّنا وجاد بنفسه لأجلنا قربانًا وذبيحةً لله طيّبة الرائحة"[42]، والنتيجة غبطة روحيّة يعيشها المخلّص هبةً لا استحقاق أعمال، وصفها كتاب التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة (بند 1721) بالقول: "إنّ سعادة كهذه لما يفوق الإدراك والطاقات البشريّة وحدها. فهي ناجمة عن عطيّة مجّانية من الله. ولذا يُقال عنها إنّها فائقة للطبيعة، كالنعمة التي تُهيّئ الإنسان للدخول في التمتّع بالله..."[43]. بذلك يغدو مفهوم الجد مناقضًا لمبدأ الوحي الإلهيّ، الذي تؤمن به المسيحيّة.

أمّا الحياة الأبديّة فليست بسلسلة من التجسّدات، بل هي اعترافات صادقة "لكي لا يهلك كلّ من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبديّة"[44].

فالسائر على دروب الرّب يكتشف يومًا بعد يوم عجزه وقصوره وجهله، بالرغم من اطّلاعه على الكثير من العلوم، وإلمامه بالكثير من التقنيّات، فهو يُدرك فراغه، وعدميّته أمام الله خالق السموات والأرض، ومبدع الأكوان، المنظورة منها وغير المنظورة[45].

بذلك نستنتج أنّ جهد الطالب هو الذي خلّصه، وإرادته النّادرة، هي الّتي أوصلته إلى الاتّحاد بالله، وهذا مناقضٌ للعقيدة المسيحيّة القائلة بالوحي الإلهيّ والفقر الرّوحيّ ومجّانية العطاء بقدر ما هو مطابق لما قالته آني بيزنت بأنّ كلّ إنسان يحتمل أن يكون هو المسيح، وأنّ التقدّم الروحي ينطلق من داخلنا..."[46].

2. مفهوم الخلاص بالصّليب بين الإيزوتيريك والمسيحيّة:

في مفهوم الخلاص بالصّليب لدى الإيزوتيريك، يُحسب الإنسان هو الصليب، والروح هي الصّالبة[47]، وإنّ قدر كلّ بشريٍّ أن يصبح مسيح نفسه – مخلّصها – عندما يسيطر على جسده، ويصلب على صليب نفسه. إنّه لسائرٌ حتمًا في درب المسيح نحو الاتحاد والكمال[48]، ولا حاجة إلى دم الرّب يسوع المسيح في الخلاص.

وعليه، فالطالب وعبر رحلة الألم تمكّن من الوصول، لأنّ الألم هو الرفيق الدائم على درب المعرفة.. رمز القانون الأكبر.. المعبد الأوّل إلى المعرفة الكلّية، حيث لا مادّة ولا عذاب ولا ألم.. بل جنّة فهم ومعرفة[49].

ورحلة الطالب مع الألم حوّلته مسيحًا، حيث حظي نهار التكريس (Noel) بإشراقة شمس العقل عليه، إذ بمفهوم الإيزوتيريك هناك العقل الأوحد، لا الابن روح الله، الذي هو المسيح، لأنّ يسّوع المسيح هو إنسان أكمل رسالته الإنسانيّة، وارتقى فأصبح من عداد المعلّمين الصفوة بعد أن حمل رسالة العطاء – رسالة المحبّة على المستوى الإنسانيّ العام والشّامل، وفي ذلك يقول الإيزوتيريك: "أرسل المسيح –الإنسان ليرشد التائهين الى الطريق القويم..."، ويضيف: "عندما يسلك الإنسان السبيل الصحيح... يصل إلى الحكمة الإلهية، إلى الكمال، عند ذاك يتخلى عن جسمه الماديّ... ويتحد بالخالق: من الإنسان الى مسيح الإنسان"[50].

فالمسيح كما يعرّفه الإيزوتيريك هو نفس الله أو الروح القدس في كلّ إنسان – أحد أجسام الإنسان الباطنيّة –... هو المحبة السامية في الإنسان[51]. وهذا يطابق ما نقرأه في مقدّمة كتاب بلافتسكي حين أشاحت عن ألوهة المسيح صانع المعجزات[52]. ويأتي الرّدّ من قَبلُ، بنص لأوغسطينوس، وفيه: "il proclame sa divinité par un grand nombre de miracles et l'histoire évangélique en rapporte plusieurs qu'elle croit suffisants à ce témoignage". وحسب أنّ المعجزة الأولى هي ولادته والأخيرة قيامته، وتوقّف على معظم المعجزات التي يستحيل أن يصنعها بشر[53]. وهنا مفصل إيماني كبير، لأنّ الحياة الأبدية هي: "أنّ يعرفوك أنت الإله الحق وحدك، ويعرفوا الذي أرسلته يسّوع المسيح"[54] الذي خاطبه توما قال "ربّي وإلهي!"، أجابه: "ألأنك رأيتني أمنت؟ طوبى للذين يؤمنون ولم يروا"[55]، فهو المسيح "ابن الله قد صار إنسانًا وسكن بيننا"[56]. الابن الوحيد الذي في حضن الأب هو الذي أخبر عنه[57].

خلاصةً، السيّد المسيّح- روح الله- هو برأي الإيزوتيريك بشر وليس إلهًا، لكنّه ارتقى فوصل الى مرتبة الإنسان – الإله، مرتبة معلّمي الإيزوتيريك، وهو واحد منهم، حمل رسالة العطاء – رسالة المحبّة في حقبة تاريخية معيّنة، وتحمّل الألم، كما حصل مع الطالب الذي ارتقى برحلته مع الألم إلى مرتبة الإنسان- الإله، وحمل رسالة العطاء على المستوى العام والشامل، كما حملها السيد المسيح.

هـ- مفهوم التأله: بين التألّه بالذات، والتألّه بالنّعمة:

إنّ يوم التكريس (Noel) الذي تحتفل به الطائفة المسيحية باعتباره عيد ميلاد السّيد المسّيح، ليس تاريخ مولد السيّد المسيح حقيقةً، وفاقًا للإيزوتيريك، بل هو "ذكرى شروق شمس العقل في البشر"، كما جاء في الرواية[58]، وفي ذكرى هذه المناسبة تخرّج الطالب[59]، ودخل عالم الوحدة، فكانت الذكرى يوم تكريسه، هو، وربما كما كانت يوم تكريس السيد المسيح برأي الإيزوتيريك. وقد خاطب الطالب الرّبّ الذي تمثّل بالطيف النوراني في طبقة علويّة سامية، ووعد بالبقاء في كنف الروح ليترقّى... ولكن بعد أن يُنهي – جيله الحالي[60]. وهو يتلاقى مع ما جاء في كتاب المسيحيّة الباطنيّة لبيزنت[61]. لقد أصبح لهذا الطالب قدرات فائقة كقدرات القدّيسين، التي تحدّث عنها يسّوع المسيح قائلًا: "والذين يؤمنون تصحبهم هذه الآيات، فباسمي يطردون الشياطين، ويتكلمون بلغاتٍ لا يعرفونها، ويمسكون الحياة بأيديهم، وإن شربوا شرابًا قاتلًا لا يؤذيهم، ويضعون أيديهم على المرضى فيتعافون"[62]. فأين الفارق بين بعدي القداسة المذكورين؟

إن القداسة بمفهوم الإيزوتيريك هي نتيجة ثقافة مشبّعة بالمعرفة المعمّقة لروح الإيزوتيريك، وتطبيق عمليّ لنهج هذه الثقافة. فهي إذًا شقٌّ متعلّقٌ بالعلم والثقافة والمعرفة والتطبيق. لكنّ القداسة من الجانب الديني – المسيحي هنا- يحظى بها المتعلّم والأمّي، البسيط أو الذّكي، الفقير أو الغنيّ، بشرط أن يكون متلمذًا للرب يسّوع، محييًا

حياته في كنف الكنيسة. مؤمنًا إيمانها، مقتاتًا من المأكل الحق، والشواهد على ذلك كثيرة، ونذكر على سبيل المثال، لا الحصر، القديسّة تريزيا، والأرشمندريت سخاروف صفروني[63].

خلاصةً، إنّ التألّه بمفهوم الإيزوتيريك، هو تألّه ذاتي نتيجة جهود مبذولة، بينما التألّه بالنّعمة، هو نتيجة تفريغ الذات والإيمان بالرّب[64]. فالعقيدة المسيحيّة تقوم على الاعتقاد بالفقر الروحي والعطيّة المجانيّة، بينما الفكر الإيزوتيريكي يركّز في بذل الجهود في رحلةٍ مرسومةٍ خطواتها... مثبتًا قانون السبب والنتيجة، الذي به يتحكّم الإنسان في مصيره، ويحقق قداسته إذا أراد.

ليس صعبًا إذًا، ربط المنهل الفكريّ لهذا التنظيم بعرفان الشرق الأقصى عامّةً والثيوصوفيا خاصّةً، الذي يعدّ الرسّل أناسًا عاديّين كابدوا الجهد فتنوّروا، وكلّ من سار على خطاهم يصبح منهم، فـ"هؤلاء كريشنا، بوذا، يشوع بن نون، يسوع الناصريّ، كما يرى إليهم الإسراريّون أو الإيزوتيريك هم يتجسّدون، عبر الأجيال، لخير الانسانيّة وسلامها[65]. وهذه التجسّدات، وفقًا للراجا يوغا (Raja-Yoga) تجمّدت بعد انحسار زمانها وحلول الدولار محلّها"[66]. "وفي اعتقاد الكارما – يوغا أنّ البودا والمسيح بطلان ثانويّان بالنسبة إلى العظام، ولا يذكرهم العالم، لكنّهم أثمروا بصمت وبحبٍّ، ولم يؤسّسوا مدرسةً أو تيّارًا..."[67]، "وفي كهوف الهند كثيرون منهم، تغلّبوا على أنانيّتهم"[68]. "أولم يقل بوذا أنّه شغل الموقع الخامس والعشرين في الرّسالة نحو التحرّر والكمال"[69] ونجد أنّ "البختي يوغا، كما الثيوصوفيّون، يستخفّون بمعجزات المسيح"[70] باعتبار أنّهم يقدرون على القيام بها.

ونجد لدى بلافتسكي، ما هو امتدادٌ لهذه المنظومة في قولها: "النظام الأبدي لا يتغيّر، لا يخضع لفكر أو لبحث، ويتجلّى بأمرين: الفضاء اللامتناهي، والنظام الذي يحرّك العناصر الكونيّة"[71]، أمّا بما يتعلّق بمصير الإنسان وقدراته الخارقة فقالت: "العلم الأسراري بين غير أهله، هو سحر وشعوذة، وإيمان وهمي بطاقات الإنسان الإلهيّة، لكنّه بين العرفانيين، كلّ ما كان، وما هو كائن، وما سوف يكون، مرسوم سلفًا في نور المجرّات، وهو ميسّرٌ كي يفهمه العرفانيّ"[72].

هكذا يتبيّن أنّ جوهر المسيحيّة متمايزٌ تمامًا عن الإيزوتيريزم، فالثيوصوفيا أو الغنوصيّة أو الإيزوتيريك أو غيرها إنّما هي اجتهاداتٌ تعارض تمامًا اللّاهوت الكلاسيكي المعروف، كما تجلّى بأفكار توما الأكويني وأغسطينس وغيرهما.

ختامًا، نلاحظ أنّ الرواية تفتقد إلى عنصر أساس في السّرد هو الجدل، وهو الذي لم يكن متوافرًا، فالبطل شخصٌ لا منافس له، يتدرّج على يد معلّمه الذي حمل منظومة الإيزوتيريك. وعليه نسأل: هل الرواية تقولبت على أساس المنظومة الفكريّة للإيزوتيريك لتوصل أفكارها مقنعةً المرسَل إليهم بأهميّة تبنّيها؟ وبعد، ماذا قدّمت هذه "سلسلة علوم الإيزوتيريك" من جديدٍ إلى الإرث الكبير الذي تركته "بلافتسكي" "وبيزنت"، و"الفيفيكندا" وغيرها من علوم الشرق الأقصى، أكثر من إنتقاءٍ لأفكار وترجمة لأخرى.

• نبذة عن الرواية:

إنّ رواية جوزيف مجدلاني "**رحلة في خفايا الذات الانسانيّة**"، تقدّم سيرة حياة شابٍ تائهٍ في جهله تقوده الحياة إلى معلّمٍ حاذق يرشده، ويقطع معه جملة مراحل حتّى يغدو متنوّرًا. الشخصيّات قليلة في الرواية، والصراعات مقتصرة على النفس، بحيث نجد في القسم الأوّل مطلعًا يعرض توجّه البطل إلى داخله بعدما كان غارقًا في قشور الحياة المادّيّة، يليها ثلاث مراحل: الأولى تصقل الإرادة فيه، والثانية الحبّ، والثالثة الفكر، وتظهر في المراحل محاولات إصلاح الحياة العمليّة على هدى الأفكار التي يستنتجها ويتعلّمها، وتدرّجه هذا يوصله إلى إنهاء الهرم الإنساني، إلى ليلة التكريس وهي اللّيلة التي يتخرّج فيها معلّمًا – مسيحًا، ثمّ يليها فجرٌ جديد ليبدأ، في القسم الثاني، مسيرة جديدة في الهرم الإلهي. وتظهر في الرواية قراءة خاصّة للدّين المسيحي. كما يظهر الايزوتيريك موقفه من المدارس الباطنيّة حيث يعدّ نفسه أنّه يشتملها ويحتويها.

***

الهوامش

* **تُعدّ أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها – المعهد العالي للدكتوراه – الجامعة اللبنانية**

[1]- جوزيف مجدلاني، **رحلة في خفايا الذات الانسانيّة**، سلسلة علوم الإيزوتيريك، منشورات أصدقاء المعرفة البيضاء– بيروت لبنان، لا. ت.

[2]- جوزيف مجدلاني، مقدّمة كتاب **آراء الحكماء في الوجود والإنسان**، بيروت: منشورات أصدقاء المعرفة البيضاء، لا. ت.

[3]- جوزيف مجدلاني، **كتاب الإنسان**، بيروت: منشورات أصدقاء المعرفة البيضاء، لا ت. ط4، ص 236.

[4]- م. ن، ص 160.

[5]- تحدث عن الثالوث، وعن الروح القدس، وجعل الطالب يتخرج في مناسبة عيد الميلاد (Noel)، كما يلحظ في الرّواية.

[6]- إنّ علم الدلالة البنيويّ ساهم في اكتشاف المعنى السطحي، وتوليد المعاني العميقة، وللوصول إليها اعتمد غريماس – مرتكزًا على ما قدّمه بروب وسوسير– ترسيمتين: المربّع السيميائي، والمخطط العواملي. للتوسّع: A.J. Greimas:

· Sémantique structurale: Recherche de méthode (Paris: Librairie Larous – se, 1966)

· Du sens, essais sémiotiques, Éditions du Seuil, 1970.

[7]- رحلة في خفايا الذات الانسانيّة، م س، ص 58 – 59.

[8]- رحلة في خفايا الذات الانسانيّة، م س، ص 61.

[9]- مجدلاني، كتاب الإنسان، ص 53.

[10]- جوزيف مجدلاني، **المرأة والرجل في مفهوم الإيزوتيريك**، بيروت، منشورات أصدقاء المعرفة البيضاء،لا.ط،لا.ت،ص35

[11]- م.ن، ص 36.

[12]- م ن، ص 37.

[13]- تك 1: 26

[14]- تك1: 27

[15]- تك2: 21–22

[16]- مجدلاني، المرأة والرجل...، ص 48.

[17]- م ن، ص 49.

[18]- يضيف الإيزوتيريك مؤكّدًا ذلك باستشهاده بقول السّيد المسيح: "قال السيد المسيح ذلك إشارة إلى ما جاء في "سفر العدد" (21: 9–8) فقال الرب لموسى: "إصنع لك حيّة، وارفعها على سارية، فكل ملدوغ ينظر إليها يحيا فصنع موسى حيّة من نحاس ورفعها على سارية، فكان أي إنسان لدغته حيّة، ونظر إلى الحية النحاسية يحيا". المرأة والرجل في مفهوم الإيزوتيريك، م س، الحاشية، ص 49 .

[19]- يو 7:2.

[20]- يوحنا 14:22. لمراجعة استشهاداتهم، وتحليلهم الموسّع لها نشير الى كتاب المرأة والرجل في مفهوم الايزوتيريك، م.س، ص 49– 50.

[21]- الكتاب المقدس– العهد القديم، منشورات دار المشرق، تعليقًا على آية تك 17:2.

[22]- رحلة في خفايا الذات الانسانيّة، م س، ص170

[23]- م ن. ص 174

[24]- بنامين كريم: http://www.sabely.com .

[25]- قانون الايمان المسيحي النّيقاوي

[26]- راجع: جوزيف مجدلاني، منشورات أصدقاء المعرفة البيضاء: علم الأرقام وسرّ الصفر، ص 42–48–49. وكتاب الإنسان، ص 64. رحلة في خفايا الذات الانسانيّة، م س، 174. ورحلة إلى عالم المجهول، ص 266.

[27]- كتاب الإنسان، م س، ص 117–118

[28]- كتاب الإنسان، م س، ص 117–118.

[29]" –Dieu manifesté en chair", Jésus est dieu , mais il n'est pas le seul, car "n'est – il pas écrit dans votre loi: – j'ai dit: vous"

êtes des dieux?... les hommes sont véritablement tous dieux par l'Esprit qui habite en eux, mais le Dieu suprême ne se manifeste pas chez tous...

Annie Besant, le Christianisme ésotérique, Adyar, Paris, 1989.p: 104 نقلًا عن: ربيعة أبي فاضل، النزعة الصوفيّة في الأدب المهجري، 2009م. ص 207.

[30] –C'est le "christ" qui vient sous la forme de Jésus homme... Ib. p: 104

[31]- قصدنا بذلك العيش في استقرار نفسيّ عاطفيّ مقترن بولاء لمبادىء فكريّة ما أو توجهّات– اجتماعيّة – إنسانيّة معيّنة.

[32]- مقدّمة كتاب آراء الحكماء في الوجود والإنسان، بيروت: منشورات أصدقاء المعرفة البيضاء.

[33]- أوّل هذه الشروط أن يكونَ للمفسّر موهبة روحيّة مصدرها الأساسي معطيها يسوع المسيح إذ إن عمل المفسّر يقاس بمدى

مطابقته روح المعطي، ولا يكون إلّا في العمل والمُعاناة، في الطقوس والصلوات، في النسك الرهباني. (نقلًا عن دراسة نقولا ج. أبو مراد "التفسير الكتابي" مجلّة النور (عدد3، سنة 1998)

[34]- وردت عبارة: "العطاء المجّاني" في كتاب التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة (بند 1721)

[35]- رحلة في خفايا الذات الانسانيّة، م س، ص43

[36]- م ن، ص48

[37]- رحلة في خفايا الذات الانسانيّة، ص: 170. اختصرنا المعادلة لأنها طويلة ولا نريد هنا سوى الإشارة الى وجودها.

[38]- م ن، ص76–77

[39]- م ن، ص180

[40]- طي 5:3

[41]- الإيزوتيريك من وجهة نظر الإيمان المسيحي، م س، ص 115–116.

[42]- أف 5: 1–2

[43]- التعلّيم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية. عرّبه عن الطبعة اللاتينية الأصلية المتروبوليت حبيب باشا، وغيره، جونيه، منشورات المكتبة البوليسيّة، 1999م.

[44]- يو 3 : 16

[45]- الإيزوتيريك من وجهة نظر الإيمان المسيحي، ص 242.

[46]– Tout homme est potentiellement un Christ et le développement en lui ...

Annie Besant, le Christianisme ésotérique, ib, p : 142 – 145. نقلًا عن: ربيعة أبي فاضل، النزعة الصوفيّة في الأدب المهجري، م س. ص 207.

[47]- كتاب الإنسان، م س، ط4، (236).

[48]- كتاب الإنسان، م س، ط7، (117).

[49]- م ن، ص: 120–121.

[50]- م.ن، ص 118.

[51]- م.ن، ص 117.

[52] –il nya pas de miracle, tout est le résultat de la loi

La nature est triple, nature visible, objective, nature invisible immanente et motrice, reproduction exacte de la première

et en dessus, de ces deux, L'Esprit, source de toutes forces, unique, éternel indestructible, ne change pas

H. P. Blavatsky, Abrégé de la Doctrine secrète, Adyar, Paris, 1995. P: 3

[53] – St. Augustin la cite de dieu 3 eds du seuil, paris, 1994, p: 47.

[54]- يو 17:3

[55]- يو 20–24–29

[56]- يو 14:1

[57]- يو 18:1

[58]- رحلة في خفايا الذات الانسانيّة، م س، ص 187

[59]- م ن، ص: 188

[60]- م ن، ص: 202

[61]–Jésus s'identifia ainsi avec la seconde personne de la trinité– avec le logos ou verbe Divin, et les grandes dates dont parle le Mythe du Dieu– Soleil devinrent les grandes dates de l'histoire de Jésus regardé comme la Divinité incarnée, comme le Christ Mystique.

Annie Besant, le Christianisme ésotérique. ib. p; 132 نقلًا عن: ربيعة أبي فاضل، النزعة الصوفيّة في الأدب المهجري، 2009م. ص 207.

[62]- مر 17:16 –18

[63]- راجع القديسة تريزيا الإفيليّة "كتاب السيرة"، بيروت: منشورات تراث الكرمل، المؤلفات الكاملة 1، 1986م.

[64]- تفريغ الذات أي الإعتقاد بلا شيئية الإنسان، فالفضل في التقدم الروحي يعود إلى الرّب، وإن كانت الصلاة والأعمال الحسنة واجبه، فهي ليست سببًا لنتيجة.

[65]– chez les ésotériques, Jésus est reconnu en Josuè comme fils de Nun. chacum de ces personnages, de même que beaucoup d'autres, avaient d'abord fait leur apparition sur la terre comme un des sept pouvoirs du logos, individualisés sous forme d'un Dieu ou d'un Ange (messager)

H. P. Blavatsky, Abrégé de la Doctrine secrète, Adyar, Paris, 1995. P: 346 – 347.

[66]– swami vivekananda, les yogas pratiques, paris, 1939. p: 609.

[67]– Bouddha était un jnànin, qui travaillait; christ était un bhakta, mais tous deux atteignirent le méme but... swami vivekananda, ib p: 48

[68] – ibid. swami vivekananda, p: 111

[69] ibid. swami vivekananda , p: 112

[70]– ibid. swami vivekananda, p: 190

[71] Abrégé de la Doctrine secrète, ibid. p 6.

[72]– la magie est la connaissance de ces principes, en tant qu'art e'st leur applications à la pratique... sorcellerie c'est la magie véritable ou sagesse.

H. P. Blavatsky, Abrégé de la Doctrine secrète, Adyar, Paris, 1995. p: 4.

***